الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزراة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

الحصة التطبيقية الثامنة:

دراسة تطبيقية في رحلة ابن بطوطة

الحصة التطبيقية 08

دراسة تطبيقية في رحلة ابن بطوطة

أولا- مدخل إلى أدب الرحلات

يعد أدب الرحلة من الآداب العالمية الرفيعة، الّتي عرفها العرب منذ القديم، وقد برعوا فيه إلى حد الإبداع، فكان الفضل في نقل المعلومات الجغرافية والتاريخية، والفنون العمرانية، والأحوال الاجتماعية، والمواقف السياسية والمهارات المهنية وغيرها من القضايا، والمواقف ذات الصلة بحياة الشعوب والأمم، فكلّن لذلك الرعيل الأول من جوابي الآفاق، ومكتشفي المجهول، الفضل في نقل تلك المعرفة من قطر إلى قطر، ومن أمة إلى أخرى، في وقت غابت فيه وسائل النقل والاتصال، والإعلام وغيرها من الوسائل التكنولوجيا المعروفة في هذه الأيام.

عرف العرب أدب الرحلة منذ القرن الرابع الهجري أوقبل ذلك، لأن هذا النوع من الأدب ظهر، وبشكلّ واضح، في كتب كثير من أعلام القرن 4هـ (10م)، نذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر: ابن الفقيه الهمذاني 280 -334هـ، والمقدسي ق 10م، والمسعودي ت 345هـ، صاحب كتاب (مروج الذهب) الّذي أورد فيه ما شاهده، وسمعه في رحلاته الّتي بلغ فيها إلى أقاصي الهند، وكذلك ابن جبير 540 -614هـ - الّذي جاب الشمال الإفريقي وغرب آسيا خلال القرن 6هـ، ويعد كتابه المعروف تحت عنوان رحلة) ابن جبير في المرتبة الثانية بعد كتاب ابن بطوطة. وقد امتد هذا الأدب عبر العصور إلى أن وصل إلى العصر الحديث، حيث برز فيه الرحالة اللامع الأديب اللبناني أمين الريحاني (1876-1940) الّذي ترك وراءه مؤلفات عديدة في هذا الميدان، وقد نزيغ عن سمت الحقيقة، إذا ما نحن عددنا الشيخ الإبراهيمي (1889م - 1965م) من الجزائر من بين أدباء الرحلات، في الوطن العربي في العصر الحديث، فقد كان لا يزور بلدا إلا وسجل ما صادفه وما رآه وسمعه في ذلك البلد، ومن آثاره الباقية في هذا الميدان، وصفه للرحلة الّتي قام بها إلى باكستان في الخمسينات من القرن الماضي، منشورة في الجزء الرابع من،آثاره وإذا رأينا اليوم عزوف الكتاب والأدباء،عن الخوض في هذا الفن من الأدب، فلعل السبب في ذلك يعود، إلى الانتشار الواسع لوسائل لا هي الإعلام، والنقل والاتصال، وما حصل فيها من تطور تكنولوجي هائل طغى على حياة الناس، وجعل من الكرة الأرضية، على شساعتها وترامي أطرافها عبارة عن قرية صغيرة يمكن رؤيتها ومراقبة ما يجري خلال في مختلف مناطقها من

أحداث وما يستجد فيها من ظواهر أومظاهر ومتابعتها يوما بيوم، من . هذه الفضائيات المنتشرة في أنحاء المعمورة تنقل الأحداث ساخنة من أماكنها بالصوت والصورة، بما لا يترك للصحافي مجالا للتأنق أوالتألق في التعبير أومجالا لكاتب رحالة بارع في الوصف والصياغة والتعبير. كلّ ذلك قلل من أهمية أدب الرحلة، لا سيما لدى الأدباء، إذ لم يبق ما يحمسهم ويدفعهم إلى المغامرة، من أجل تسجيل ووصف حياة الشعوب، وغرائب الأمصار والبلدان، ومظاهر الحياة الاجتماعية وما شابه ذلك.

وقد كان نقل الخبر يتطلب جهدا عضليا، وقدرا من المال للوصول إلى مصدر الخبر، أوالحدث لنقله فضلا عن المخاطر والأهوال والمعاناة، وليس خافيا على أحد، ما عاناه جماع اللغة العربية، والأحاديث النبوية الشريفة من تلك المصاعب . وأدب الرحلة، أدب تثقيفي تعليمي، إلى جانب ما المتعة الّتي يقدمها للقارئ في جولة أدبية تجمع بين العقل والعاطفة، في رحلة واحدة مفيدة، يطلع القارئ خلالها على ثقافات الشعوب،وعاداتهم وتقاليدهم، وجغرافية وتاريخ أوطانهم بأسلوب علمي متأدب، يجمع فيه بين وضوح الفكرة وجمال الصياغة يحدثه من نبذة عن صاحب الكتاب.

لا شك أن الواجب، يقتضي منا أن نتحدث عن صاحب الكتاب، قبل الخوض في الحديث عن الكتاب، ولوباختصار شديد حتى لا نغمط الكاتب حقه، في التعريف به وبالمجهود الّذي بذله من أجل تأليف هذا الكتاب، فمن هوابن بطوطة يا ترى؟

هوأبوعبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، والملقب بشمس الدين. ولد بمدينة طنجة سنة 703هـ (1304م)، بالمملكة المغربية (المغرب الأقصى)، وفيها نشأ وترعرع وتعلم الفقه ومكث فيها إلى أن بلغ الثانية والعشرين، وكان قد استكمل دراسته في الأدب والقضاء، جريا على تقاليد الأسرة، فاندفع بدافع التقوى إلى الحج، وانساق بحبه الأسفار إلى التجوال في بلدان العالم المعروفة في أيامه فطاف في مصر وسوريا وجزيرة العرب، وإفريقية الشمالية، وآسيا الصغرى، وروسيا الجنوبية والهند والصين والأندلس والسودان

أشهر ماله في عالم الأسفار ثلاث، رحلات دون ما شاهده فيها، في كتاب تحت عنوان (رحلة ابن بطوطة)، ولا ندري من أين جاءت هذه التسمية (ابن بطوطة) وأغلب الظنّ أنها تسمية أدبية، قصد بها التشويق، وملائمة ما ورد في الكتاب من مشاهد غريبة وعجيبة، توفي بمدينة فاس المغربية سنة أسفاره :

استغرقت هذه الرحلات الثلاثة زهاء تسع وعشرين سنة، أطولها كانت السفرة الأولى، الّتي مكث خلالها مدة طويلة بالهند، حيث تولّى خلال إقامته بالهند القضاء مدة سنتين، وما يماثلها في الصين أيضا. وبما أنه كان رجلا متدينا فكانت عاطفته الدينية تدفعه إلى زيارة المساجد والزوايا في كلّ مكان يحل به.

ابن بطوطة المؤرخ والجغرافي وصف مدينة دمياط بمصر فقال: دمياط مدينة فسيحة، الأقطار متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة في كلّ حسن بنصيب، وهي على شاطئ النيل... غنمها سائمة بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط سورها حلواء وكلّابها غنم ووصف مدن لبنان الّتي زارها كبيروت وبعلبك وصيدا الحصانة وصور وطرابلس وغيرها، فقال عن مدينة صور: ومدينة صور هي الّتي يضرب بها المثل، في المنعة، لأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، ولها بابان: أحدهما للبر والثاني للبحر.. وأما الباب الّذي للبحر فهوبين برجين عظيمين وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منه ... . ثم ينتقل إلى وصف مدينة صيدا فيقول : " ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها الّتين والزبيب والزيت إلى بلا مصر ... ... ثم ينتقل إلى مدينة دمشق، وأول ما يلفت انتباهه فيها، هومعلمها التاريخي الشهير (الجامع الأموي، فينظر إليه بعين المؤرخ الباحث فيقول:" وهوأعظم مساجد الدنيا احتفالا، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسنا بهجة ويوجد كمالا . لا يعلم له نظير وله تشبيه. وكان الّذي تولى بناؤه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان... وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن..... في هذا الوصف تبدوالذاتية واضحة جلية،إلى جانب الموضوعية، المتمثلة في المعلومات التاريخية والجغرافية.

ثانيا- ابن بطوطة الواعظ :

ومن الوصف التاريخي الجغرافي، ينتقل ابن بطوطة، إلى التركيز على مكارم الأخلاق، والحث على فعل الخير، وهي قضايا تتعلق بإصلاح المجتمعات، في كلّ زمان ومكان، يقول ابن بطوطة: مررت يوما ببعض أزقة دمشق، فرأيت مملوكا صغيرا، قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونه (الصحن) فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع اله ما اشترى به مثل ذاك الصحن وهذا من أحسن الأعمال فان سيد الغلام لا بد له أن يضر به على كسر الصحن أوينهره، وهوأيضا ينكسر قالبه ويتغيّر لأجل ذلك، فكان هذا الموقف جبرا للقلوب الله خيرا من تسامت مثل هذا ... القاص ابن بطوطة

وأما ابن بطوطة القاص، فيتجلى في هذه الأخبار الغريبة العجيبة، الّتي رواها في كتابه، والّتي لا يجعلها للتلقي، لأن الإنسان بطبعه ميال إلى الغرابة، وذلك هوالأدب شعرا ونثرا، فالسرد القصصي ذلك الّذي يبتدئ عادة بوصف سفر أوانصراف أوذهاب،،، لأن هذه الحركة تنقل البطل من فضاء إلى فضاء وتثير السؤال المعروف:

ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

وليس البطل وحده الّذي يتحرك، بل القارئ بدوره يتحرك : ن فضائه إلى فضاء الحكاية، وإلى زمان الحكاية.

لا شك أن القول الّذي يستدعي انتباه القارئ في أي عمل إبداعي هوالقول الغريب، بالمقارنة مع نمط مألوف من القول، والغرابة في هذه الحال، قد تكون في الفعل الّذي يقوم به البطل، مثل ما رواه بطوطة في كتابه تحفة النظار... عن السحرة في بلاد الهند والصين حيث قال: بعث السلطان محمد شاه إلى ابن بطوطة يوما) لأن ابن بطوطة قد أقام ملة في الهند فدخل عليه فوجد عنده رجلين بالتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما، وأمره السلطان بالجلوس فجلس فقال السلطان لهما: إن هذا الشخص من بلاد بعيدة فأرياه من غريب صنعكما... فتربع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض، حتى صار في الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وأدركني الخوف فسقطت إلى الأرض مغشيا علي فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت على حاله . متربع فأخذ صاحبه فعلا له فضرب بها الأرض كالمغناظ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب في عنقه، وهوينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا، فقال السلطان: إن المتربع هوتلميذ صاحب النعل ثم قال: لولا أتي أخاف على عقلك لأمرهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت فانصرفت عنه وأصابني الخفقان ومرضت حتى أمر لي بشرية أذهبت ذلك .

وقد تكون الغرابة والإثارة عن طريق المفاجأة، حيث يفاجئ الكاتب قارئه، بما لم يكن يتوقعه خلال الكلّام السابق، أوأن يأتي بتعابير غريبة، تجلب من أمكنة بعيدة، غير معهودة، وتستقر في عادتها أن تكون فيه فتثير الدهشة والتعجب لدى المتلقي والمعروف: إن ما يحدث العجب، يحدث اللّذة أيضا ويتحقق هذا المطلب في الشعر أكثر منه في النثر، ولأن العلامة اللغوية في أي شعر جيد يتصف بالجودة، تمثل غاية شعرية، لأنها تكشف بخصوصيتها عن الكائن المرموز إليه... والشاعر المتمكن يؤسس كينونة الفعل الشعري من خلال تنسيقه للعلامات اللغوية، باعتبارها تملك نظاما خاصا، ببقية الأنظمة الجاهزة قبل عملية التشكيل.

وفي ختام دراستنا هذه نكون قد تطرقنا لجماليات الرحلة عند أبن بطوطة وذلك من خلال الأدوار المختلفة التي لعبها الرحالة، إضافة إلى السياقات المعرفية والثقافية والاجتماعية والدينية البارزة في هذا النص الرحلي، ما يؤكد دائما على دور الرحالة وحضوره ضمن التفاعل الثقافي ونقل إبداعات الشعوب وثقافتها إلى سائر أقطار العالم.

المراجع المعتمدة

1. رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، 1964م
2. جورج غريب، أدب الرحلة : تاريخه وأعلامه، سلسلة الموسوع في الأدب العربي دار الثقافة بيروت، ج 7
3. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار الطبيعة، بيروت، ط2
4. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، مكتبة النهضة المصرية، 1970م
5. الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب في الأندلس والمغرب)، دار المعارف لبنان عام 1962م